

## رسالة مفتوحة للجميع

# قبل فوات الأوان

المهندس عدنان الرفاعي\*

.. لا شك أنّ المرحلة التي يمرّ بها العالم اليوم بشكل عام وأمتنا بشكل خاص ، هي مرحلة حرجة ، وذلك على صعيد التروع نحو الهيمنة والتطرّف بشتّى المجالات ..

.. فالشهية الأمريكية التي لا حدود لها للسيطرة على العالم ( كمل العالم ) ، ودورها في فلك الوهم الصهيوني ، ووضع مصطلحها معياراً لتقييم الآخريين ، دفع شعوب الأرض - على الأقلّ فكرياً وثقافة - باتجاهات تُستقطب فيه نحو التصدي لهذا الذئب الذي لا يرى الآخر إلاّ فريسة موقوتة لها يومها الذي تُؤكل فيه ..

.. وفي هذا السياق لسنا بصدد تفصيل ما هو مفصّل ، فالتطرّف الأمريكي الغربي المتحالف مع التطرّف الصهيوني ، بدأ واضحاً منذ عقود من الزمن ليست قليلة ، وأيّ إنسان - مهما كانت ثقافته - يستطيع رؤية ذلك من خلال ما يرى وما يسمع عمّا يحدث ويدور في هذا العالم ..

.. إنّنا - في هذا السياق - بصدد الوقوف عند تطرّف آخر ، له أوهامه التي يبني منها مشروعاً يريد فرضه ليس على الغرب والصهاينة ، بل على أبناء وطنه وأبناء أمته ، وذلك تحت ستار التصدي للتطرّف الغربي الصهيوني ، فتحت هذا الستار يتقطّب الكثيرون الذين كوتهم نيران التطرّف الغربي الصهيوني ، فيقعون ضحية تطرّف آخر ، نيرانه ليست أقلّ من نيران التطرّف الأوّل ، وهكذا يُوضع أبناء الأمة بين هذين الحدين ، ويُصوّر المخرَج على أنّه لا يتعدى هذين الحدين ، وتسير الأمور من سيئ إلى أسوأ ..

.. وهكذا يتمّ التخندق بين أبناء الأمة في خندقين متعادين ، كلّ خندق منهم ما يغمره دخان أحد هذين الحدين من التطرّف ، ويتجزأ الكثير من أبناء الوطن الواحد بين خيارين أحلاهما مرّ ، فتضيع الحقيقة في غبار الصراع بين هذين الوجهين من التطرّف ..

.. ولرؤية هذه الحقيقة بشكل جليّ ، علينا العودة إلى الحرب الأهلية بـ بين أبناء ماء أفغانستان ، فكلّ طرف يدّعي أنّه حامل لواء الله تعالى في الأرض ، وأنّه خلاص البشرية ، وأنّ استلامه للسلطة يعني عودة مجد الدولة الإسلامية ، وتحرير مقدّساتها ، وأنّ الغرب سيدفع له الجزية بمجرد استلامه هذه السلطة ، وأنّ الطرف الآخر عدوّ للإسلام وبالتالي كافر ويحلّ قتله ..

.. وتمّ استقطاب الكثيرين من السدّج للتخندق في هذين الخندقين ، وتمّ الاقتتال ، وقتل وشردّ وجرح الملايين من أبناء أفغانستان ، وبدلاً من أن يدفع الغرب الجزية كما سوّق للسدّج ، بدلاً من ذلك احتلت أفغانستان ، وحدث ما رأيناه ونراه بأمّ أعيننا ..

.. ولرؤية هذه الحقيقة بشكل جليّ ، علينا النظر لما يحدث الآن في العراق ، ففي الوقت الذي توجد فيه مقاومة شريفة هدفها إخراج المحتل وعودة العراق إلى أهله ، إلى جميع أهله دون أيّ تمييز أو تفریق بين مذهب وآخر أو عرق وآخر ، في هذا الوقت نرى المتطرفين والتكفيريين يعيشون فساداً في العراق ، فيقتلون أبناءه تحت شعارات مذهبية تنته هدفها تمزيق العراق وإحداث فتنة ليس في العراق وحده فحسب وإنما في المنطقة ككل ، ممّا يخدم أعداء الأمة ومشروعهم الخبيث ، ويسيء إلى المقاومة الشريفة ، ويساهم في إطالة أمد الاحتلال .. وكلّ هذا يحدث خلف أقنعة ساقطة تتحدث باسم الله تعالى تارة ، وباسم الأمة والوطن تارة أخرى ..

.. وسأكون أكثر جرأة فأقول ، للأسف هناك بعض السدّج ممن طلقوا عقولهم ، يرون هذه الأقنعة وجوهاً جميلة ، ممّا يحدث استقطاباً مذهبياً تنناً ، يمتدّ كثقافة وفكر مر على مساحات قليلة نسبياً ، ولكنها مخيفة ، وهم بذلك ضحايا الترهات والأكاذيب والحيل التي يقوم بها المتطرفون والتكفيريون لخداع الناس وإيهامهم باستباحة دم الآخرين ، لأنهم آخرون ..

.. وعلينا ألاّ ننسى دوامة العنف التي حدثت في الجزائر ، وفي السودان ، وفي وفي وفي وفي .. ، كلّ ذلك يحدث نتيجة التخندق في إحدى خندقي التطرف التي تحدثنا عنها ، إمّا يكفر الآخر ، وإمّا يتهم بالخيانة والعمالة ، وذنبه أنّه آخر وله رأي آخر أو اعتقاد آخر ..

.. ودائماً في غيوم غبار هذا الصراع يلوذ المتصهينون خلف حجج مقاومة هذذا ، فإذا بهم في الخندق الآخر من التطرف ، وفي يد أعداء الأمة ، سواء علموا بذلك أم لم يعلموا ، ودائماً الخاسر الأكبر - في ذلك - هو الأمة والأوطان وأبناؤها

الذين يدفعون أثماناً باهضةً من دمهم واستقرارهم واقتصادهم ومستقبلهم لنتيجة حتمية هي دمارهم وتمزيقهم وتحقيق مشاريع أعدائهم ..

.. وجذر مشكلة هذا الوجه من التطرف ، بنيوي ، يستمد مادته من التقليد الغريزي والاتباع الأعمى لنماذج أعطت نفسها لقب المتحدث باسم الله تعالى ، مستمدة اعتقادها من جزئيات تاريخية وروايات ينقضها القرآن الكريم جملة وتفصيلاً ، وحتى يتم التضييل وتُعطي القدسية لهذا الاعتقاد لا بد من تصوير الآخر ، أي آخر ، على أنه بعيد عن الحق بمقدار ابتعاده عن خندق هذا التطرف ، فالآخر - من وجهة نظرهم - إما كافر ، وإما متآمر مع الكافرين ، وإما شيطان ساكت عما يحمله هذا الفكر المتطرف ..

.. هذه الحالة لا بد من معالجتها فكرياً وثقافةً ، لأنها خطر لا ينجو منه أحد ، وهنا يبرز دور كتاب التنوير خصوصاً المتحدثين من داخل الخط الديني ، وهنا يبرز أيضاً دور الإنسان الواعي الذي لا يتبع ما ليس له به علم ، وهنا أيضاً يبرز دور وسائل الإعلام في تبين حقيقة منهج الله تعالى الذي يحرم قتل الإنسان بسبب اعتقاده ، فالكثير من الحقائق المغيبة لا بد من إظهارها وجعلها خطوطاً حمراء لا يجوز تجاوزها ، وعلى رأسها حرية الاعتقاد ، عملاً بقوله تعالى ( لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ) وعملاً بقوله تعالى ( ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ) وعملاً بقوله تعالى ( وقال الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ) ، فحماية حرية اعتقاد الإنسان وما يتعلق بذلك من دمه وماله وعرضه مسؤولية الجميع ، وقبل ذلك هي مطلب إلهي واضح وصريح في العديد من آيات القرآن الكريم ، وفي كل الشرائع ..

.. فكل من ينظر - بشكل مباشر أو غير مباشر - في وصف الآخرين بأنهم ليسوا مؤمنين ، بسبب اختلاف عقيدتهم وأديانهم ومذاهبهم ، هو شريك في قتلهم ، لأنه يعطي بذلك مبرراً للتكفيريين ، وهو الكافر بقوله تعالى ( ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً ) ، وكل من يبرر قتل الأبرياء تحت أعدار وشعارات براقية ، إنما يدعو إلى قتل الإنسان كإنسان ، فالقرآن الكريم يبين لنا أنه لو توقف تحرير كل المقدسات ، ولو توقفت سعادة البشرية كل البشرية ، على قتل إنسان بريء ، لحرم قتله ، لأن قتله يوازي تماماً قتل البشرية جميعاً ، وإلا كيف بنا أن نفهم قول الله تعالى ( من قتل نفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ) ..

.. إن لم تسد هذه الثقافة في المجتمع وإن لم يعمل بها ، فلا اسه استقرار ولا أمن ، وبالتالي فالتمزق والافتتال هما البديل ، فأمن أي بلد في العالم لا يسود إلا بتحقيق شرطين ، أولهما الطمأنينة والإيمان وبالتالي عدم تكفير الآخرين عملاً بقوله تعالى ( وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ) ، وثانيهما العدل وعدم الظلم .. فقط في حال تحقيق هذين الشرطين معاً يسود الأمن في أي مجتمع ، ويكون المجتمع مجتمعاً راشداً يسير على درب الهداية ، يقول تعالى في تبيان ذلك ( الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ) ..

.. وبعيداً عن التنظير والتفريغ ، وبجراحة أكبر أقول : هناك الكثير من موروثاتنا التاريخية والفكرية التي تناقض القرآن الكريم ، والتي يحسبها الكثيرون من جوهر المنهج ، يفهم من صياغتها اللغوية أنه لا يجوز التعامل مع الآخر ، بل وإن المسلمين ذاهبهم ينقسمون إلى فرق كثيرة كلها غير ناجية ، أي كافرة ، باستثناء فرقة واحدة فقط ، يزعم أتباع كل فرقة أنهم هم المعنيون بالنجاة دون غيرهم ، وبالتالي فغيرهم هو من الفارق الهالكة والضالة ، ومن هنا تتوالد الثقافات التكفيرية حتى بين أبناء الدين الواحد ، ومن هنا يستمد التكفيريون مادة تكفيرهم للآخرين ، ومن هنا يبدأ التمزق والتشردم الفكري الذي يترجم - بعد ذلك - إلى أعمال عنف وقتل ..

.. وإلا كيف بنا أن نفهم فكر وثقافة من يفجر نفسه - أثناء صلاة الجمعة - في مسجد للمسلمين الذين ينتمون إلى مذهب إسلامي آخر ، نحن نعلم أن الأعداء يستغلون ذلك ويساهمون في هذه الفتن ، ولا نبرئ من يحيك المؤامرات ويستثمر الضياع الفكري والعرق في مستنقع التيه ، ولكننا ننظر إلى المسألة من الزاوية التي يفكر بها هذا الذي فجر نفسه بين المصلين معتقداً أنه بذلك يخدم الإسلام ويتقرب - بعمله هذا - إلى الله سبحانه وتعالى ، وأن الحور العين بانتظاره فور تفجير نفسه وقتل أكبر عدد ممكن من المصلين المنتمين إلى دين آخر أو طائفة أخرى أو مذهب آخر ، فالمسألة مسألة اعتقاد مشوه أكثر بكثير من كونها مسألة إغراء مادي ، لأن الإنسان لا تنفعه أموال الدنيا إن هو ترك هذه الدنيا بتفجيره لنفسه ..

.. لقد رأينا بأم أعيننا كيف فجر الكثيرون أنفسهم وسط المساجد أثناء صلاة الجمعة ، وأثناء الاحتفالات الدينية وغيرها ، في العراق وفي باكستان وفي غيرها ، وهم يعتقدون أنهم بذلك يجاهدون في سبيل الله تعالى ، والنتيجة هي عدم استقرار المجتمع وزجه في فتن طائفية ودينية مصيرها معروف ومراد من قبل أعداء الأمة ..

.. المشكلة في الفكر المحسوب على الإسلام أنه تمت صياغة المنظومة الفكرية والثقافية له خلال التاريخ على أساس تاريخي ، وليس على أساس منهجي عقلي مادته القرآن الكريم ، فالبناء الفكري - لكل مذهب - تم تشييده من لبنات جزئيات التاريخ الخاصة بكل مذهب ، في الوقت الذي يريد الله تعالى منا أن نبني منظومتنا الفكرية والثقافية من لبنات الواقع المصوغة في قالب العقل المجرد حسب منهج كتابه ( القرآن الكريم ) ..

.. لذلك فالتاريخ مليء بالصراعات الدينية والمذهبية والطائفية بين أبناء الوطن الواحد ، وهذا التاريخ هو ذاته الذي يحول الكثرين إلى منهج يقدم على أنه عين منهج الله تعالى ، وبالتالي فحيثيات الاختلاف مع الآخرين موجودة ، ويفهما كل عابث بأمن الناس وحرية دمائهم وأموالهم وأعراضهم كما يريد ، وفي النتيجة يسير فكر الأمة فوق حقل من الألغام ، تخشى فيه الأمة من أي خطوة تسير بها نحو الأمام ..

.. والطامة الكبرى تتجلى بدخول هذه الاختلافات ساحة العمل السياسي ، يعطائها هويات سياسية ومساحات قوى فاعلة في المجتمع كما حدث في أفغانستان ، فحين ذلك يُجزأ المجتمع إلى قوى متناحرة ليس على أساس سياسي ، وإنما على أساس ديني ، فالاختلاف السياسي يصبح اختلافاً دينياً ، والخلاف في الرأي يصح كفه راءً وزندقة ، ففي الاصطفافات الدينية والمذهبية المبنية على جزئيات التاريخ ، لا مكان للتفاهم مع الآخر والالتقاء معه إلا بالمجاملة ..

.. ويصبح الانتساب إلى هذا الحزب أو ذاك انتساباً إلى المذهب أو الطائفة ، وبالتالي فعدم الانتساب يصبح خروجاً أو - على الأقل - خيانة للمذهب والطائفة ، وبالتالي تحدث انقسامات داخل ساحة المذهب الواحد والطائفة الواحدة ، ويُزج المجتمع في اصطفايات طائفية ومذهبية وشخصية لا تُحمد عقباه ، ويغرق الكثرين في غبار هذا التيه ..

.. فكيف لحزب مبني على أساس ديني أو مذهبي أو طائفي أو عرقي أن يلتقي مع الآخرين ، وهو لا يقبل هؤلاء الآخرين من أبناء وطنه في دخول حزبه ، لأنهم آخرون .. وإن زعم هذا الحزب - مجاملة - أنه يقبل هؤلاء الآخرين في حزبه ، فلماذا إذاً اختار الطريق المذهبي والطائفي والعرقي في تسمية حزبه وفي تمييز هويته عن غيره من أحزاب وطنه !!!؟ ، ولماذا لم يختار طريقاً آخر يُجمع فيه كل أبناء الوطن على مختلف انتماءاتهم !!!؟ ..

.. وكيف لحزب مبنيّ على أساسٍ دينيّ أو مذهبيّ أو طائفيّ أو عرقيّ أن يلتقي مع حزبٍ آخر مبنيّ على ذات الأساس ولكن باختلاف مذهبيّ أو طائفيّ أو عرقيّ ، إذا كان الانتساب المذهبي والطائفي والعرقي عنده أعلى من الانتساب الوطني ، بدليل الأسس الماس الذي يبني عليه حزبه ، وعدم قبوله - في حزبه - للآخرين من أبناء وطنه المختلفين معه في خصوصيته هذه !!!؟ ..

.. هذه الحقيقة تزداد خطورتها أكثر في بلد تنعم مدد فيهِه الأديان والمذاهب والطوائف والأعراف مثل سوريا ، حيث لا يكاد يوجد مذهب أو طائفة إلا وله أتباع ، وبالتالي فإن إقامة أحزابٍ سياسية على أساس دينيّ أو مذهبيّ أو عرقيّ ، يعخي غرق المجتمع في أحوالٍ تنته لا يخرج منها بسلام ، ويعني أيضاً تعلق هذه القوى السياسية بالخارج أكثر من تعلقها بالقوى الأخرى داخل الوطن ، ويصبح أتباع المذهب أو الطائفة خارج الوطن أقرب من أبناء الوطن الذين ينتمون إلى مذاهبٍ أخرى وطوائفٍ أخرى لهم قواهم السياسية داخل الوطن ..

.. وفوق كلّ ذلك فإنّ زجّ الدين في السياسة هو تضيق للدين وتحويله إلى حالة سياسية يديرها رجال شأنهم كشأن غيرهم على صعيد الدين ، وهو في الوقت ذاته تحجيم للعمل السياسي وتحويله إلى لونٍ دينيّ لا يخرج عن تعليماتٍ محدّدة ، فمن هو الذي يقدّم نفسه ناطقاً باسم الله تعالى ونائباً عنه في الأرض ؟ ومن هو الذي يُعطي نفسه الصلاحية لجعل اجتهاداته السياسية ورؤيته وتحليله لقضايا الوطن ديناً يُطلب من الآخرين اتّباعه ؟ .. بالنتيجة فإنّ زجّ الدين في السياسة يساوي تماماً زجّ السياسة في الدين ، وبالتالي الإساءة للدين والسياسة على حدّ سواء ..

.. والدين الحقّ في ماهيته لا يريد من أتباعه تحويله إلى حالة سياسية ، إنّهُ نظام تعبدي وأخلاقي وتربوي وتنظيمي وجد لخدمة الإنسان ولخلاصه في الدنيا والآخرة ، ومن لا يُريد اتّباع أحكامه فلا يُجبر على ذلك ، وما يريدُه الدين الحقّ هو إعطاء الحرية التامة للمتدين بأن يُمارس شعائره دون إكراه ودون تضيق ، في الدرجة ذاتها التي يضمن فيها للآخرين ممارسة حريتهم في شعائره دون تضيق أو إكراه .. أمّا ما إجه مار أبناء المجتمع على خصوصيات تاريخية وعلى فرض ما لم يأمر الله تعالى به بشكل صريح في القرآن الكريم ، فذلك ليس من الدين في شيء ، بل يسيء إلى الدين ويُظهره على أنّه أحكام طوارئ لا تنتهي إلى قيام الساعة ..

.. لذلك .. وقبل فوات الأوان ، أتوجّه في هذا المقال إلى كلّ من يهمّه الأمر برسالة مفتوحة للجميع ، فأقول : حذار من قيام أحزابٍ سياسية على أساس دينيّ أو

طائفي أو مذهبي أو عرقي ، وذلك رحمة بالأديان وبالسياسة وبوحدة الوطن وبأبناءه وبدمائهم وأعراضهم وأموالهم ومستقبلهم ومستقبل أبنائهم ، فعيشهم متحابين متآخين متساوين في المواطنة متعاونين داخل وطن واحد ، هو من أهم ما أتت به الأديان وتأمير به ، وهو من مصلحة جميع أبناء الوطن دون استثناء ، وهو من أشرف ما أتت به الأديان والسياسات الصادقة ، وهو من البر والقسط الذي يأمر الله تعالى به ، يقول تعالى : ( لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبوؤهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ) ..

**المهندس عدنان الرفاعي**